



عضو أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا بالقاهرة

الحرية العلمية المقيدة في الإسلام

دكتور

زياد بن عبد الله الحمام

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك فيصل

كلية الآداب

مجلة الثقافة والتنمية العدد الثالث والستون (٦٣) ديسمبر ٢٠١٢م

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن الله جل وعلا استخلف الإنسان في الأرض لعبادته، وليكون عامراً لها بالخير والصلاح، وهياً له الوسائل المساعدة ليحقق بها ذلك.

وكان من تلك الوسائل تطبيق مفهوم الحرية التي تعد في الإسلام غريزة فطرية وجبلة بشرية تلنقي عندها المشاعر وتتجاوب معها العواطف وتتطلع إليها النفوس، وبها تتحقق ذاتية الإنسان وكرامته وسعادته في الدنيا والآخرة.

والدين الإسلامي احتوى على نظم الحياة وتشريعات الأحكام وما يحتاجه المسلم في التعامل مع ربه ومع نفسه ومع الأحداث والمواقف والفرص من حوله، مما يحقق له الأمان النفسي والكمال الإنساني، والرفقي والتقدم في شتى جوانب الحياة.

وكان من أبرز الأمور التي دعمها الإسلام وأكد الإقبال عليها والاستزادة منها هي تلقي العلوم والمعارف، ومع هذا التأكيد المتزايد فإن الإسلام يرفض في الوقت نفسه الاستسلام بقبول كل ما فيها وتلقيها وتلقفها دون نقد وتمحيص وتوضيح وتبيين، بل يدعو إلى اقتناء المفيد منها والمتوافق مع أسسه وضوابطه الربانية، ويرفض ما سوى ذلك، ومن هذا المنطلق كان هذا البحث (الحرية العلمية المقيدة في الإسلام).

ويحسن التنبيه إلى أنني حرصت فيه على تغليب جانب التأصيل من حيث المضمون والمراجع بما يتلاءم مع طبيعة تخصصي، دون التعرض لاستطرادات مظهرها بحوث الثقافة الإسلامية.

وقد جاء البحث في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة فبينت فيها أهمية موضوع البحث ومحتواه.

والمبحث الأول عنوانه: "التعريف بمصطلحات البحث"، وقد عرفت من خلال

أربعة مطالب مصطلحات: الحرية- والعلم- والمقيد- والإسلام في اللغة والاصطلاح.

والمبحث الثاني عنوانه: "الصلة بين الحرية في الإسلام وقدرة العبد"، وفيه

عرضت لمذاهب الجبرية والقدرية وأهل السنة والجماعة حول كون الإنسان مخيراً أم

مسيراً؟ ومدى حريته وقدرته على الاختيار في أفعاله وتصرفاته.

والمبحث الثالث عنوانه: "الحرية في الإسلام والحرية بالمفهوم الغربي"، وتحدثت فيه عن بعض المقارنات والمفارقات والتوافقات بين الحريتين، والمفهوم التطبيقي الحقيقي للحرية التي يريد بها الله عز وجل من عباده.

والمبحث الرابع : عنوانه "تقييد الحرية العلمية في الإسلام" وبينت فيه أهمية تقييد الحريات وحاجة الناس لذلك مما يحقق مصالحهم، ثم ذكرت في مطلبين بعض أسس وضوابط الحرية العلمية في الإسلام.

ولخصت في الخاتمة أهم نتائج البحث وخلصت إلى أبرز التوصيات.

كتبه

د. زياد بن عبد الله الحمام

١٠/٨/١٤٣٣هـ

٣٠/٦/٢٠١٢م

المبحث الأول: التعريف بمصطلحات البحث:

المطلب الأول: تعريف الحرية لغة واصطلاحاً:

١- تعريف الحرية لغة:

الحر بالضم: نقيض العبد والجمع أحرار وحرار، ، والحرية: نقيض الأمة والجمع حرائر، والمحرر الذي جعل من العبيد حراً فأعتق^١.
وتطلق الحرية في اللغة على^٢:

- الخلاص من العبودية، فيقال: هو حر، أي غير مسترق ولا مملوك.
- الخلو من كل شيء دخيل، يقال "فرس حر" أي عتيق الأصل أي ليس في نسبه هجنة، و"طين حر" أي لا رمل فيه، وأرض حرة: لا رمل فيها، ورملة: لا طين فيها.
- الحر هو الكريم من كل شيء أي خياره وأعتقه وطيبه، يقال: "حر الأرض أطيبها، وحرية القوم بضم الحاء وتشديد الراء والياء: أشرفهم، يقال: " هو من حُرِّية قومه" أي من أشرفهم.

وتحرير الولد أن يفرد له لخدمة الله وخدمة المسجد^٣، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا...﴾ [سورة آل عمران: ٣٥].
وتحرير الكتاب، وهو تقويمه وتخليصه من الاضطراب والفساد^٤.

^١ انظر: لسان العرب . ابن منظور، ، دار صادر . بيروت، ط ١، (١٧٧/٤).

^٢ انظر: المنجد في اللغة . علي بن الحسن الهنائي الأزدي . دار المشرق . بيروت، الطبعة ٣٦، ١٩٩٧م (ص: ١٢٤).

^٣ انظر: مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي تحقيق : محمود خاطر، مكتبة لبنان بيروت، ١٤١٥هـ (١/١٦٧).

^٤ انظر: تفسير القرطبي. محمد بن احمد الانصاري القرطبي . تحقيق: احمد عبد العليم البردوني دار الشعب. القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢هـ (٤/٦٦)، والقاموس المحيط . الفيروزآبادي . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط ١، ١٩٩١م (٢/١٣).

ومن خلال ما سبق يتبين أن الحرية في اللغة لها عدة إطلاقات تنبئ عن معاني كثيرة ترجع إلى معنى الخلوص والتحرر من القيود والشرف والكرم والسلامة من الاضطراب والفساد^١.

٢- الحرية في الاصطلاح:

استعملت الحرية في نصوص الشريعة الإسلامية بالمعنى المضاد للرق والعبودية، فناقش الفقه الإسلامي أحكام العبد والأمة وجعلوا للحرية تعريفاً مناسباً لذلك بأن الحر في اصطلاح الفقهاء من خلصت ذاته من شائبة الرق.

كما تناول بعض أعلام المسلمين وفلاسفتهم تعاريف كثيرة للحرية منها^٢:

- تعريف جابر بن حيان الكوفي (ت ٨١٥هـ) بأنها: إرادة تقدمتها روية مع تمييز.
- وقال أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) بأن: الحر من يصدر منه الفعل مع الإرادة للفعل على سبيل الاختيار، على العلم بالمراد.
- وعرفها الطاهر ابن عاشور بمعنيين أحدهما ناشئ عن الآخر: الأول: بمعنى ضد العبودية وهو "أن يكون تصرف الشخص العاقل في شؤونه بالأصالة تصرفاً غير متوقف على رضا أحد آخر". والثاني: "هو تمكن الشخص من التصرف في نفسه وشؤونه كما يشاء دون معارض"^٣.

والتعريف الاصطلاحي الجامع للحرية في الفكر الإسلامي أنها: المكنة العامة التي يقررها الشارع للأفراد، بحيث تجعلهم قادرين على أداء واجباتهم واستيفاء حقوقهم، واختيار ما يجلب المنفعة ويدرك المفسدة دون إلحاق الضرر بالآخرين^٤.

^١ انظر: القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة . مانع المانع . دار الفضيلة . الرياض، ط ١، ٢٠٠٥ م . (ص: ٩٠-٩١).

^٢ انظر: النظام السياسي في الإسلام . نعمان عبد الرزاق السامرائي . الرياض، ط ١، ١٩٩٩ م (ص: ١٧٥-١٧٦).

^٣ مقاصد الشريعة الإسلامية : محمد الطاهر بن عاشور ، تحقيق : محمد الميساوي ، طبعة دار النفائس، الأردن . ط ٢، ٢٠٠١ م، (ص: ٣٩٠).

^٤ انظر: الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية . رحيل محمد غرايبة . دار المنار . ط ١، ٢٠٠٠ م (ص: ٤١)، ومفهوم الحرية دراسة تأصيلية . علي فقيهي . رسالة ماجستير بقسم الثقافة الإسلامية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٢ هـ، (ص: ١٥).

أما بالنسبة لمفهوم الحرية بالمصطلح الغربي والفلسفي فقد خضعت لتعريفات عديدة اقتربت أو ابتعدت عن حقيقتها، إذ أن كل فيلسوف تناولها من الخلفية والأرضية التي يقف عليها، ومن تلك التعريفات:

أشار معجم (المصطلحات القانونية) إلى أن الحرية تعني: " الخير الأسمى ، بالنسبة للفرد أو للشعب ؛ بهدف العيش بعيداً عن أي استعباد ، أو استغلال ، أو اضطهاد ، أو هيمنة داخلية أو خارجية " .

وقد انقسم المفكرون في عصر النهضة ، وفلاسفتها في تعريف الحرية إلى مدرستين : المدرسة الأولى ترى أن الحرية إرادة ، وتعرفها بأنها : " قدرة الإنسان أو سلطته في أن يفعل ، أو أن يقدم على أن يفعل أي تصرف معين " أما المدرسة الثانية فتري أن الحرية : " حكم العقل " أو هي " حكومة العقل والضمير " .

وتحدد المادة الرابعة من إعلان حقوق الإنسان الفرنسي ١٧٨٩م مقصود الحرية على أنه : " قدرة الإنسان على إتيان كل عمل لا يضر بالآخرين " ، كما نصت المادة الخامسة من هذا الإعلان على أنه : " لا يمكن للقانون أن يمنع سوى الأعمال الضارة بالمجتمع " ، ولأجل ذلك فقد عرّف لوك الحرية بأنها : " الحق في فعل شيء يسمح به القانون " أما الأنظمة الشيوعية فيمثل فلسفتها مذهب ماركس، وهو مذهب يصبغ كل مظاهر الحياة بصيغة تختلف عما هو سائد في الديمقراطية الغربية .

فالحرية في المعسكرين الغربي والشرقي تعني التحرر من (سلطة) ، في الغربي تحرر الإنسان المحكوم من استبداد الحكم السياسي ، وفي الشرقي تحرر الإنسان من السيطرة الاجتماعية ^١ .

والخلاصة أن الحرية في المفهوم الفلسفي تعني : " قدرة الإنسان على الفعل بكل اختيار واستطاعة وإرادة على وجه لا يضر بالآخرين " ^٢ .

^١ انظر: موقع مركز باحثات لدراسات المرأة. مقالة "فكرة الحرية عند الغرب" للكاتب سعد الداعج على الرابط:

<http://www.bahethat.com/ActivitieDatials.aspx?ArticleId=125>

^٢ انظر: حق الحرية في العالم . وهبة الزحيلي، دار الفكر . دمشق . ط ٤ ، ١٤٢٨ هـ (ص: ٣٩) ، والمعجم الفلسفي . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية . القاهرة، ١٤٠٣ هـ (ص: ٧١) .

ونظراً لأن الحرية تعد رمزاً وركناً من أركان الليبرالية فيحسن بنا أن نشير إلى مفهوم الحرية عند الليبرالية التي هي مأخوذة من من لبرالس liberalis اللاتينية وتعني حر على الرأي المشهور^١، وأما من حيث معناها عندهم فلها مفاهيم متعددة بحسب ما تضاف إليه، سواء أكانت ليبرالية سياسية، أو ليبرالية اقتصادية، أو ليبرالية أخلاق أو ثقافة.. وهكذا، إلا أنها يجمعها الاهتمام المفرط بالحرية، وتحقيق الفرد لذاته، واعتبار الحرية هدفاً وغاية في ذاتها. فالحرية لديهم مطلقة لا تحدها الحدود إلا ما كان فيها تجاوز لحریات الآخرين على قاعدة (تنتهي حريتك حيث تبدأ حرية الآخرين)^٢.

المطلب الثاني: تعريف العلم لغة واصطلاحاً:

١- تعريف العلم لغة^٣:

العلم في معناه اللغوي إنما سمي علماً لأنه علامة يهتدي بها العالم إلى ما قد جهله الناس، وهو كالعلم المنسوب في الطريق . ويعني أيضاً اليقين والمعرفة والإدراك، وهو نقيض الجهل.

٢- العلم في الاصطلاح:

عرفه أبو إسحاق الشيرازي (ت: ٤٧٦ هـ) بقوله: العلم هو معرفة المعلوم على ما هو عليه^٤.

وعرفه الشوكاني (ت: ١٢٥٥ هـ) بقوله: هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافاً تاماً^٥.

^١ انظر: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا . يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة . القاهرة . ط ٥ ، ١٩٩٣ م (ص: ٥٠).

^٢ انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها . عبد الرحمن السلمي (ص: ١٠١).

^٣ انظر: القاموس المحيط (٢١٦/٤)، والمصباح المنير . أحمد الفيومي . مكتبة لبنان . بيروت، ١٩٨٧ م (ص: ١٦٢).

^٤ اللمع في أصول الفقه . لأبي إسحاق الشيرازي دار الكتب العلمية . بيروت . ط ١ ، سنة ١٤٠٥ هـ (ص: ٤).

^٥ إرشاد الفحول لتحقيق الحق من علم الأصول. للشوكاني. تحقيق محمد سعيد البدری دار الفكر . بيروت . ط ١ ، ١٤١٢ هـ (٢٠/١).

والمقصود بالعلم مجموعة المعارف والحقائق التي وصلت إلى الإنسان عن طريق الوحي، أو توصل إليها من خلال تفكيره وملاحظاته وتجاربه طوال فترة حياته^١.
إن العلم وفق هذا المقصود ينقسم إلى علوم دينية، وعلوم دنيوية، كما قال تعالى:
{يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} [الروم: ٧].

المطلب الثالث: تعريف المقيد لغة واصطلاحاً:

١- تعريف المقيد لغة^٢:

المقيد لغة: وصف للمفعول من قيده بقيده فهو مقيد، أي: جعل فيه قيداً، والقيد: ما يحد الحركة.

٢- المقيد في الاصطلاح^٣:

هو ما يحد من الإطلاق، فيعطل اللفظ عن بعض ما يصدق عليه، أو ما دل على الحقيقة بقيد؛ كالرقبة المقيدة بالإيمان في قوله تعالى: {فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ} [النساء: ٩٢]، واليد المقيدة بالمرفق في قوله تعالى: {لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ} [المائدة: ٦].

المطلب الرابع: تعريف الإسلام لغة واصطلاحاً:

١- معنى الإسلام في اللغة :

لهذا اللفظ في اللغة معنيان هما^٤:

المعنى الأول: الاستسلام والانقياد قال تعالى : {أَفَغِيرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨٣]، وقال تعالى: { فلما أسلما وتله للجبين } [الصافات: ١٠٣].

^١ الثقافة الإسلامية وتحديات العصر . شوكت عليان . الرياض . ط ١ ، ١٤٠١هـ (ص: ١٩).

^٢ انظر: لسان العرب (٣/٣٧٣)، والقاموس المحيط (١/٦٢٧).

^٣ انظر: روضة الناظر . موفق الدين ابن قدامة . تحقيق: عبد الكريم النملة . مكتبة الرشد . الرياض . ط ١ ، ١٤١٣هـ ، (٢/٧٦٣).

^٤ انظر : لسان العرب لابن منظور مادة (سلم) (١٢/٢٩٣).

المعنى الثاني : إخلاص العبادة لله ، قال تعالى : (ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) [لقمان: ٢٢] ، وقال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) [البقرة: ١٣٠-١٣١]

والإسلام بهذين المعنيين الاستسلام لله ، وإخلاص العبادة له — هو دين الله تعالى في جميع رسالاته إلى خلقه { إن الدين عند الله الإسلام } [آل عمران:]

٢- الإسلام في الاصطلاح:

الإسلام هو : الاستسلام لله لا لغيره ، بأن تكون العبادة والطاعة له والذل ، وهو حقيقة لا اله إلا الله^١.

ويمكننا من خلال تعريفات مصطلحات البحث أن نخلص إلى التقارب اللغوي بين تعريف الإسلام والحرية إذ تعنيان الخلاص من العبودية لغير الله وإخلاصها لله وحده.

^١ مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣٩/٥).

المبحث الثاني: الصلة بين الحرية في الإسلام وقدرة العبد

يرتبط الحديث عن الحرية في الإسلام بمسألة قدرة الإنسان على الفعل، وفيما إذا كان مخيراً أم مسيراً؟ والمذاهب الإسلامية في هذا الباب على طرفي نقيض ووسط. فذهبت طائفة وهم الجبرية^١ إلى أن الإنسان مجبر على أفعاله، وأنه لا استطاعة له أصلاً، وأن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطراريه كحركات المرتعش، وإضافتها إلى الخلق مجاز!

ويؤول إلى هذا المذهب رأى الأشعرى القائل بأن الفعل الإنساني هو محصلة لخلق الله تعالى وكسب الإنسان، لكنه عرف الكسب بأنه مقارنة قدرة الإنسان للفعل الإلهي مما أدى إلى إلغاء الكسب أي إلى الجبرية.

وعليه فالجبر نقيض الحرية فهو مذهب لا يثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً وأن كل شيء يتم على نحو لا مرد له فلا تستطيع قدرة الإنسان ولا إرادته أن تغير شيئاً في مجرى الحوادث^٢.

وفي المقابل نجد القدرية والمعتزلة^٣ الذين قالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات هم من خلقها، لا تعليق لها بخلق الله تعالى. وأسندوا الفعل والإرادة

^١ الجبرية فرقة تنفي الفعل عن العبد، وتضيفه إلى الرب، أي أن الله يجبر العباد على أفعالهم، وأول ما ظهر هذا القول في أوائل المائة الثانية للهجرة تقريباً على يد الجهم بن صفوان (ت: ٢٨٨هـ)، مع العلم بأن هناك بعض الأفراد من أهل الشام وأهل البصرة قالوا بالجبر في عهد الصحابة وقد رد عليهم ابن عباس، والحسن بن علي رضي الله عنهم. انظر: المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل. أحمد بن يحيى بن المرتضى. صححه: توما أرندل. دار صادر. بيروت، مصورة من طبعة ١٣١٦هـ (ص: ٩-١٠).

^٢ انظر: الملل والنحل. للشهرستاني (٣٤/١).

^٣ القدرية هم نفاة القدر، وأول ما ظهر هذا المذهب في أواخر عهد الصحابة على يد معبد الجهني (ت: ٨٠هـ) - على الأرجح - وسمي أتباعه بالقدرية الأولى وهم أناس يزعمون "أن لا قدر وأن الأمر انف"، أي مستأنف لم يسبق لله تعالى فيه علم، وقد وقف منهم الصحابة موقفاً شديداً وتبرأوا منهم، وكفرهم الأئمة، ثم شاع القول بنفي القدر على يد المعتزلة. انظر: صحيح مسلم. كتاب الإيمان. حديث رقم (١)، والفرق بين الفرق. للبغدادى. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد. ط ١ (ص: ١٨-١٩)، وحاشية كتاب التوحيد. عبد الرحمن بن قاسم. ط ١، (ص: ٣٦٥).

إلى الإنسان وقد تطرفوا في إسناد الفعل والإرادة إلى الإنسان حيث ذهبوا إلى أن كل فعل للإنسان هو بإرادته المستقلة عن إرادة الله تعالى^١.

وفي العصر الحديث لا تخرج الآراء والمذاهب الفكرية في مسألة الجبر والحرية عن المذهبين السابقين: ففي حين نجد المذاهب والفلسفات الإلحادية تسقط الإرادة الحرة وتعلن الجبرية، نجد في المقابل مذاهب وفلاسفة يقولون بالحرية المطلقة للإنسان فالإنسان حر بنفسه وسيد ذاته ومتصرف وخالق لفعله وعلى رأسهم الوجودية الراضية لأي قدر وسلطة على الإنسان^٢.

وتوسط أهل السنة والجماعة في القدر والحرية والاختيار فقالوا إن أفعال الإنسان على نوعين:

١- نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، كحركات المرتعش (اضطرابي).

٢- نوع يكون منه مقترناً لإيجاد قدرته واختياره (اختياري).

وعلى هذا يذهب أهل السنة والجماعة إلى أن العباد فاعلون لأفعالهم الاختيارية حقيقة والله خلقهم وخلق أفعالهم لخالق لها سواء، وبها صاروا مطيعين وعصاة، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ} [الصافات: ٩٦]، وأن للعباد قدرة على أعمالهم الاختيارية، ولهم إرادة والله خلق قدرتهم وإرادتهم، قال تعالى: {لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [التكوير: ٢٨-٢٩]. وأن الله يحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم الاختيارية^٣.

إن الإسلام حسب معتقداته الصحيحة يكون قد وازن بين الإقرار بحرية الإنسان واختياره وإرادته وأقر بأنها إرادة وحرية واختيار لا تخرج عن إرادة ومشئته الخالق سبحانه.

^١ انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل . ابن حزم الظاهري . مكتبة الخانجي . القاهرة (١٤/٣)، وتهديب شرح العقيدة الطحاوية . عبد الآخر الغنيمي . دار الصحابة . بيروت . ط ٢، ١٩٩٦م (ص: ٣٢٥)، والقضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة . عبد الرحمن المحمود . دار النشر الدولي . ط ١، ١٤١٤هـ (ص: ٢٠٣).

^٢ انظر: مفهوم الحرية دراسة تأصيلية (ص: ٤٦-٤٧)، والموسوعة الميسرة (١١٩/٢).

^٣ انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع: عبد الرحمن بن قاسم، مكتبة ابن تيمية . القاهرة (١٤٨/٣)، وتهديب شرح العقيدة الطحاوية (ص: ٣٢٦).

المبحث الثالث: الحرية في الإسلام والحرية بالمفهوم الغربي

إن أول من عقد المقارنة بين مفهوم الحرية عند الغرب وبين تعاليم الإسلام هو الخبير الاقتصادي، والفيلسوف البريطاني "جون ستوارت ميل" (ت: ١٨٧٣م) حيث ذكر أن الإسلام عندما يتعرض لمسألة تحريم تجارة الخمر. فإن التحريم يمس حرية الفرد لأنه يفترض أن الفرد لا يعرف مصلحته، وينتقد كذلك تحريم أكل الخنزير في الإسلام. فيقول إن للمسلمين الحق في تجنبهم لحم الخنزير لأنهم يعافونه، لكنهم عندما يحتقرون غيرهم ممن لا يعافه ويأكله، فإنهم يمسون بحرية ذلك الغير.

كما أن ميل يعارض أساساً نظام الحسبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) ولسبب هو أن المحتسب يضع نفسه في موضع الله ويعاقب أخاه الإنسان الذي لا يطيع الأوامر الإلهية. يقول ميل: "إن الناس عندما ينهون غيرهم عن المنكر يعتقدون أن الله لا يكره فقط من يعصي أوامره، بل سيعاقب أيضاً من لم ينتقم في الحال من ذلك العاصي"¹.

وفي حقيقة الأمر يصعب إيجاد صيغة كونية موحدة لتطبيق مفهوم الحرية نتيجة الاختلاف بين الحضارات والثقافات والأديان، فما يعد من قبيل الحريات في مجتمع ما، قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، فمشي الإنسان عارياً في غابات إفريقيا مثلاً يعد سنة متبعة وعادة مستحسنة عند تلك البلاد، وزواج المثل في بريطانيا يعتبر من صميم الحرية التي يكفلها الدستور ويحميها القانون، وهو في الإسلام شذوذ جنسي، وتطرف أخلاقي، مناقض للفطرة حيث يجعل الإنسان مهدداً بالانقراض بإيقافه للتناسل البشري.

إن إلماحة موجزة في بعض النصوص الإسلامية الواردة في الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة الصالح يتبين منها ولأول وهلة أنها تتعارض مع تلك المفاهيم للحرية التي ينادي بها الغرب، ولنعرض لبعض منها:

¹ عن الحرية . جون ستوارت ميل، ترجمه إلى العربية : هيثم كامل الزبيدي، (ص: ٤٦).

قال تعالى حكاية عن نبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام وقومه: {وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْبَرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعْلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ} [الأنبياء: ٥٧-٥٨].

وقال تعالى حكاية عن نبيه موسى عليه الصلاة والسلام وقومه: { قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ، قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تَخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا} [طه: ٩٥-٩٧].

وقال تعالى حكاية عن نبيه سليمان عليه الصلاة والسلام: { ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون} [النمل: ٣٧] وورد في الحديث عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين واضربوهم عليها وهم أبناء عشر وفرقوا بينهم في المضاجع" 1.

كما أقام الصحابة رضي الله عنهم حد الردة لمن منع دفع الزكاة، وجاء في أقضية عمر رضي الله عنه: "اضرب من يصلي بعد العصر"، وغيرها من الروايات التي ورد فيها الضرب للإلزام وعدم التخيير.

وفي التشريعات: جاء قوله تعالى { وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا } [النساء: ٣٤] :

- وحديث: " من بدل دينه فاقتلوه" ٢.
- وأن المفطر جهاراً في نهار رمضان حكمه التعزير.

¹ أخرجه أبو داود ٣٣٤/١: كتاب الصلاة: باب متى يؤمر الغلام بالصلاة، حديث "٤٩٥"، "، والترمذي "٢٥٩/٢": كتاب الصلاة: باب ما جاء متى يؤمر الصبي بالصلاة، حديث "٤٠٧". وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وصححه ابن خزيمة.

² رواه البخاري في صحيحه (حديث رقم: ٣٠١٧).

- وتحريم سفر المرأة بغير محرم.
 - ويعاقب الإسلام من يقول: إن القرآن محرف وينشر ذلك.
- وفي أقوال السلف : قال الشافعي رحمه الله: " حكمي على أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم بين العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك كتاب الله وأقبل على الكلام"¹. وهذه العبارة تعد من محاسن كلام الشافعي رحمه الله.
- والتوجيه الصائب لهذه النصوص التي يحكم من ظاهرها أنها تخالف تطبيق الحرية للناس بالمفهوم السائد، فليعلم أن الإنسان لا ينفك عن العبودية وهي وصف لازم له فهو يخضع لسلطان، أو لأخبار ورهبان سوء، أو هوى، ونحو ذلك. إلا أن الدعوات الدينية بعامة منذ نوح وحتى محمد عليها الصلاة والسلام ارتبطت بالدعوة للحرية بتحرير النفوس البشرية والنوات الإنسانية من سيطرة الآخر وسطوة الغير بشراً كان أو صنماً، وتأکید العبودية لله وحده.
- والإسلام بخاصة نقل الإنسان من تلك العبوديات المزيفة إلى المعبود الحقيقي وهو الله جل جلاله، فأصبح المؤمن في أعلى مراتب الحرية المتضمنة لأعلى درجات المسؤولية، ولكن لم يعبر عن ذلك بالحرية، يقول ربعي بن عامر رضي الله عنه مصداقاً لذلك: "جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة"².
- إن العبودية لله عز وجل هي أساس الحرية لأنها تحرر الإنسان من كل عبودية نسبية، ولا تضع في طريق حرية الإنسان حدوداً، بل تجعل من المولى جل وعلا هدفاً لحرية الإنسان، فحرية الإنسان هي ثمرة عبودية وحيدة يرتبط بموجبها الإنسان بالله المصدر الأول للكون والحياة والوجود³.
- ومع النظرة الساخطة من الغرب على الحرية في الإسلام نرقب في واقع

¹ انظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر. دار الكتب العلمية. بيروت، ١٣٩٨هـ - (١٩٣/٢).

² تاريخ الأمم والملوك. لابن جرير الطبري. دار الكتب العلمية. بيروت. ط ١، ١٤٠٧هـ - (٥١٨/٣).

³ انظر: حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي. يسري أرشد (ص: ٥٢).

الحال ما يدعم القول بأنه توجد مفاهيم مشتركة بين الحرية في الإسلام والحرية بالمفهوم الغربي، ولكن التكيف مختلف، فلو أخذنا على سبيل المثال: فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإسلام فإنه يقابلها في المفهوم الحديث حرية نقد الآخر والتعبير عن الرأي، وتأكيد العلماء المسلمين على حق البحث في المسائل الاجتهادية يقابلها حرية البحث العلمي، والدعوة للشورى في الإسلام يقابلها حرية التجمع وتكوين النقابات والترشح للبرلمانت.. وهكذا.

المبحث الرابع: تقييد الحرية العلمية في الإسلام

تمهيد:

رغم تباين المجتمعات في النظرة لمفهوم الحرية، إلا أن كل مجتمع يقر بضرورة وجود ضوابط أو قيود لممارسة تلك الحريات بأنواعها المختلفة ولا يماري أحد في الشرق أو الغرب أن الحرية المطلقة مستحيلة وغبر حميدة، ولا بد من حدود لضبطها، والحريات في العالم مهما كان مصدرها إلا أنها مقيدة، حيث قيدت الحرية في الإسلام بنصوص الوحي، وقيدت الحريات الوضعية بالحكومة والقانون، ويشهد لذلك أن الإعلان العالمي^١ في الفقرة الثانية من المادة التاسعة والعشرين يؤكد على وضع ضوابط وقيود لقضية الحرية: "يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقرها القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها، ولتحقيق المقنضيات العادلة للنظام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي"^٢.

والأبعد من ذلك أن القانون الدولي يمنع بعض الحريات الدينية مراعاة للنظام العام وحقوق الآخرين، وهذه النقطة هي التي استندت عليها المحكمة الأوروبية لحقوق

^١ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تمت صياغته في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٤٦-١٩٤٨م، وكانت هذه الصياغة ثمرة لنقاشات طويلة حول حقوق الإنسان التي يجب احترامها، وذلك نتيجة للحوادث المأساوية التي حصلت أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد احتوى على ديباجة وثلاثين مادة. انظر: الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان. وائل علام . دار النيل . المنصورة [د.ت.] (ص: ٣٦).

^٢ حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والإسلام مقارنة بالقانون الدولي. خالد الشنير، من إصدارات كرسي الأمير سلطان بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة، ط ١ ، ١٤٣٠هـ، (ص: ٢٤٠).

الإنسان في منع ارتداء الحجاب الإسلامي للموظفات والمعلمات بحجة أنه يميز طائفة عن طائفة داخل المجتمع¹.

كما قيدت تجارب وعمليات الإخصاب واستئساخ الجينات وتجميد النطف وأطفال الأنابيب عند المحافظين الغربيين الجدد بخاصة حتى ضعفت الأبحاث الطبية بعد هذه القيود².

وأما الإسلام فكما قال السخاوي عند تحريره لمفهوم الحرية : " الإسلام أعطى الإنسان الحرية، وقيدها بالفضيلة حتى لا ينحرف، وبالعدل حتى لا يجور، وبالحق حتى لا ينزلق مع الهوى، وبالخير والإيثار حتى لا تستبد به الأنانية، وبالبعد عن الضرر حتى لا تستشري فيه غرائز البشر"³.

لذا سأعرض ومن خلال المطلبين المقبلين لأبرز أسس الحرية العلمية في الإسلام وأهم ضوابطها.

المطلب الأول: أسس الحرية العلمية في الإسلام:

لا ينظر الإسلام إلى الحرية بعامة والحرية العلمية بخاصة على أنهما شيء كمال ولا يعدها أمراً مزاجياً خاضعاً للذوق والرغبة، بل أقامهما على أسس ومرتكزات، واعتبرهما جزءاً لا يتجزأ من مبادئه وقيمه، ومن أبرز تلك الأسس ما يلي:

- أن الله عز وجل كرم الإنسان الذكر والأنثى، وفضله على سائر المخلوقات، ومكنه من هبات الأرض وخيرات الكون، والحرية جزء لا يتجزأ من ذلك التكريم، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى

¹ انظر: القانون الدولي لحقوق الإنسان . محمد علوان ومحمد خليل الموسى . دار الثقافة، عمان . ط ١، ٢٠٠٦م (ص: ٢٧١-٢٧٣).

² جاء في قرارات الجمع الفقهي . قرار رقم: ٥ (٢/٥) بشأن أطفال الأنابيب جواز إجراء هذا النوع من العمليات بشروط سبعة، يمكن الاطلاع عليها من خلال موقع الفقه الإسلامي على الرابط:

<http://www.islamfeqh.com/News/NewsItem.aspx?NewsItemID=3206>

³ نقلاً عن قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية دراسة نقدية في ضوء الإسلام . فؤاد العبد الكريم مركز باحثات لدراسات المرأة . الرياض . ط ١، ٢٠٠٩م (٩٢/١).

كثير ممن خلقنا تفضيلاً» [الإسراء: ٧٠]، وإذا كان الله قد كرم الإنسان فليس من المعقول أن يفرض عليه المنزلة والاسترقاق. وهذا ما بينه القرآن في آية أخرى حينما ضرب لنا مثلاً في قيمة الحرية فقال ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهرأ هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ [النحل: ٧٥]، وقال تعالى مخاطباً للمستضعفين معاتباً لهم على خضوعهم للظلم ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾ [النساء: ٩٧]، كما قص الله علينا حواراً جرى بين موسى وفرعون حيث قال موسى معاتباً لفرعون وساخرأ منه في صيغة تهكم ﴿وذلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل﴾ [الشعراء: ٢٢]، ووصف الله الرسول صلى الله عليه وسلم أنه جاء رحمة للناس ومحرراً للعباد من الاستعباد ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والإصر: هو التكاليف الشاقة، والأغلال: غير الأصر، فهي مستعارة للعبودية التي كانوا عليها في الجاهلية وهي عبودية الأصنام وسدنتها، وعبودية الملوك، وعبودية القادة^١.

- جاء الإسلام يدعو الناس إلى النظر في الكون ، وإلى التفكير، { قل إنما أعظكم بواحدة، أن تقوموا لله مثنى وفردى، ثم تتفكروا } [سبأ: ٤٦]، { قل انظروا ماذا في السموات والأرض } [يونس: ١٠١] ، وحذر من الذين يتبعون الظنون والأوهام، يقول سبحانه وتعالى: ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ [يونس: ٣٦]، وحذر أيضاً من الذين يتبعون الهوى والذين يقولون: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون﴾ [الزخرف: ٢٢]، وجعلهم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

ومما يؤكد على أهمية العلم في الإسلام أن من مقاصد الشريعة: حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاح الإنسان في عقله وعمله، وصلاح موجودات العالم، وهذا ما

^١ انظر: الحرية في الإسلام . عماد الدين الرشيد . دار الفكر . دمشق . ط ١، ٢٠٠٧م (ص: ٣٨)، وأثر الدعوة المحمدية في الحرية والمساواة . محمد الطاهر بن عاشور . مجلة الهداية الإسلامية . الجزء ١٩، المجلد ٦، ١٣٥٣هـ.

قرره محمد الطاهر بن عاشور (ت: ١٩٧٣هـ) في كتابه "مقاصد الشريعة" بحيث تكون الأمة قوية الجانب قادرة على الدفاع عن ذاتها ومقوماتها، ولا يتحقق ذلك دون علم^١.

كما أن مقاصد البشر محصورة في المقاصد الدنيوية والدنيوية، ولا ينتظم أمر الدين إلا بانتظام أمر الدنيا، وليس ينتظم شأن الدنيا إلا بعلم البشر وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم، مما يضمن أسباب المعيشة من زراعة وصناعة وسياسة^٢.

ومع هذا التأكيد على سلوك دروب العلم بشتى أنواعه فإن الإسلام يبين بهذا أنه دين قوي ليس في داخله ما يمكن أن يمثل تناقضا مع العلم والتفكير حيث لا يصح أن يخشى الإسلام التفكير وهو يدعو إليه ولا أن يخشى العلم وهو يدعو إليه أيضا وليس فيه شيء يناقض العقل حتى يخشى التفكير ولا شيء يناقض العلم حتى يخشى العلم وإنما هو دين العلم والعقل فليكن فيه سلطانه المطلق، كما أن الإسلام على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل السديد يوصلا إلى نفس النتائج التي يقررها^٣.

- الإسلام لم يلزم جميع أفرادها بالاتجاه إلى علم معين ، وترك هذا الأمر مطلقا حسب رغبة كل فرد وميوله وأهوائه ، بل إن مقتضى الحال يدعو إلى أن يكون للمسلمين باع في كل علم من العلوم المفيدة وأن يكون لدى جماعة المسلمين الخبراء والمختصون في مختلف المجالات لكي يكونوا في قوة ومنعة ويستغنوا بإمكانيتهم عن الأعداء ، قال تعالى : { وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو رده إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا } [النساء : ٨٣].

- يرفض الإسلام كل صور اضطهاد الحرية العلمية : والأمثلة في التاريخ الإنساني على الاضطهاد المرفوض كثيرة، ومن أبرزها التعذيب البدني الذي تعرض له الإمام أحمد

^١ انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية. محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٧٨، ص، 70.

^٢ انظر: مقالة. مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام . لعمار الطالبي على الرابط:

<http://www.mohyssin.com/forum/showthread.php?t=3594>

^٣ العقيدة الإسلامية وأسسها . عبد الرحمن الميداني (ص: ١٠٠).

ابن حنبل، في سبيل التخلي عن معتقدات كان ينادي بها . والاضطهاد والسجن الذي تعرض له شيخ الإسلام ابن تيمية بسبب بعض اجتهاداته وأبحاثه .. كما أن جاليلو – عالم الفلك الشهير – قد تعرض للقمع الشديد عندما جاء بآراء جديدة في مجال الفلك ، تتعارض مع المعتقدات السائدة في المجتمع آنذاك .. ولقد تم تنفيذ حكم الإعدام في الأديب المصري سيد قطب – عام ١٩٦٦م – بسبب دراسته الشهيرة : "معالم في الطريق" .. !! ناهيك عن محاكم التفتيش وما جرى فيها من ألوان التكيل والتعذيب، وعلى المستوى العالمي ، يجد الباحثون عقبة خطيرة، أسمها، قانون معاداة السامية الذي أصدره الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن، فقد أعلن أواخر أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٠٤، أنه اصدر قانوناً جديداً ينص على أن تلاحق وزارة الخارجية الأميركية كل الأعمال المعادية للسامية في العالم وتقيم موقف الدول حول هذا الموضوع .. مما دفع بعض سلطات الدول المتخلفة، إلى إغلاق بعض المراكز السياسية البحثية التي لا تتفق ووجهة النظر الأميركية .. فقد تم إغلاق مركز "زايد للتنسيق والمتابعة في أبو ظبي"؛ بسبب الضغوط الأميركية والإسرائيلية ؛ لأنه قدم دراسات وبحوث على مستوى علمي عال، واستضاف شخصيات دولية وعلمية ودينية (مسيحية ويهودية ومسلمة) في رسالته الحضارية الحوارية^١.

المطلب الثاني: ضوابط الحرية العلمية في الإسلام:

لا يعني إقرار الإسلام للحرية العلمية أنه أطلقها من كل قيد وضابط؛ لأن الحرية بهذا الشكل أقرب ما تكون إلى الفوضى التي يثيرها الهوى والشهوة، ومن المعلوم أن الهوى يدمر الإنسان أكثر مما يبنيه، والإسلام ينظر إلى الإنسان على أنه مدني بطبعه، يعيش بين كثيرين من بني جنسه، فلم يقر لأحد بحرية دون آخر، ولكنه أعطى كل واحد منهم حريته، كيفما كان، سواء كان فرداً أم جماعة، ووضع قيوداً ضرورية تضمن حرية الجميع، وتحافظ على مسلمة الدين وثوابت الأمة والعادات

¹ انظر: مقالة بعنوان "أزمة الحرية الأكاديمية في العالم العربي" للكاتب: محمد مسعد ياقوت على الرابط:

<http://www.saaaid.net/arabic/169.htm>

والتقاليد التي تواضع عليها المجتمع.

وتتمثل الضوابط التي وضعها الإسلام في الآتي:

- خلوها من أي ضرر يمس مقاصد الشريعة الإسلامية، وكلياتها وضروراتها: ضرورات الشريعة هي ما تقوم عليها حياة الناس، ولا بد منها لاستقامة مصالحهم، وإذا فقدت اختل نظام حياتهم، وعمت فيهم الفوضى وانتشر الفساد. والأمور الضرورية خمسة أشياء هي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، المال. وقد شرع الإسلام لكل واحد من هذه الضروريات الخمس أحكاماً تكفل إيجادها وإقامته، وأحكاماً تكفل حفظه وصيانتها، فكل حكم يكفل إقامة هذه الأمور الخمسة أو حفظها هو حكم ضروري.

وعلى هذا يجب تجنب تعلم العلوم المذمومة والمحرمة شرعاً: كالسحر والطلسمات والشعوذة، وما إلى ذلك من التلبيسات على الناس.

- الالتزام بمبدأ المسؤولية أمام الله تعالى:

الحرية العلمية في الإسلام مسؤولية يصبح الإنسان بها مسؤولاً عن أفعاله وتجاربه وأقواله تجاه نفسه ومجتمعه، يقول علّال الفاسي (ت: ١٣٩٤هـ): "فالإنسان ما كان ليصل لإدراك حريته على الوجه الذي أراده الإسلام لولا نزول الوحي، ولولا الرشد الديني الذي جاء به القرآن.. إن الحرية لا تعني أن يفعل الإنسان ما يشاء ويترك ما يريد، فذلك ما يتفق مع طبيعة شهوته، ولا يتفق مع طبائع الوجود كما ركب عليه، ولكنها تعني أن يفعل الإنسان ما يعتقد أنه مكلف به، وما فيه الخير لصالح البشر أجمعين. وإيمان الإنسان بأنه مكلف هو أول خطوة في حريته".¹

وقد يوجد عنصر المسؤولية في كثير من الأنظمة، لكنه لا يتجاوز في كثير من الأحيان مسؤولية الفرد تجاه القوانين المعمول بها، أما مسؤولية الإنسان المسلم فتختلف جوهرياً عن تلك المسؤولية؛ لأنها نابعة من باطن الإنسان، ومائلة أمامه دائماً وأبداً، فالإنسان

¹ مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها . علّال الفاسي . دار الغرب الإسلامي . ط ٥ ، ١٩٩٣م

المسلم مسئول أمام جهة مطلعة عليه تراقبه، وتشاهد عن كثب كل تحركاته وسكناته، بل مطلعة حتى على أفكاره وخلجات قلبه.

وعنصر المسؤولية يشير من جهة أخرى إلى "حرية الإنسان" ويعبر عن اختياره، وهو ما يكشف عن مدى الاهتمام الذي يوليه الإسلام للحرية، فالمسؤولية التي لا تفترن بالحرية تصبح مجرد لفظة فارغة لا قيمة لها، فالمسؤولية تعني أولاً أن الإنسان حر، وثانياً: التزامه وانضباطه، وعلى هذا فالمسؤولية تعد الضمانة الأكيدة لقيام حرية حقيقية في الإسلام^١. بمعنى أن الإسلام يمنحك أعلى مراتب الحرية ويطالبك بأعلى درجات المسؤولية.

- مراعاة الحقوق والواجبات:

الحرية العلمية في الإسلام حرية متوازنة تدعو إلى مراعاة الحقوق والحاجات وتتطلب القيام بالواجبات والالتزامات تجاه النفس والكون والحياة والمجتمع.

كما تضمنت الشريعة الإسلامية بالنص الصريح منهجاً لحفظ الحقوق والحريات الإنسانية، وذلك بفرض العقوبات على المخالفين لتردعهم عن إلحاق الأذى بغيرهم، وتطبيق هذه العقوبات جاء من أجل ردع من تسول له نفسه تدمير القيم الإنسانية، وليست من أجل التكتيل بالمجرم.

إن هذه الحقوق والواجبات محمية في الإسلام بضمانات تشريعية وتنفيذية بعكس حقوق الإنسان في الإعلان العالمي التي لا تتجاوز ردهات المؤتمرات والاجتماعات، وهذا ما تتل عليه المظاهر وتشهد له الآثار^٢.

^١ انظر: الحرية المسؤولة في الفكر الفلسفي الإسلامي . سامي نصر لطف . مكتبة الحرية الحديثة . جامعة عين شمس (ص: ٣٠٥).

^٢ انظر: الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام . عبد الحكيم العيلي (ص: ٥٦١-٥٩٠).

الخاتمة والتوصيات:

- من خلال استعراض مباحث ومطالب البحث يمكننا أن نخلص إلى النتائج التالية:
١. تبين في التعريف بمصطلحات البحث أن الحرية في اللغة لها عدة إطلاقات تنبئ عن معاني كثيرة ترجع إلى معنى الخلوص والتحرر من القيود والشرف والكرام والسلامة من الاضطراب والفساد، وأن معناها الاصطلاحي تعددت مفاهيمه في الفكر الإسلامي والفلسفي والليبرالي إلا أنه يشير في الغالب إلى قدرة الإنسان على الفعل والاختيار.
 ٢. الإسلام حسب معتقداته الصحيحة وازن بين الإقرار بحرية الإنسان واختياره وإرادته وأكد على أنها إرادة وحرية واختيار لا تخرج عن إرادة ومشئئة الخالق سبحانه، وبهذا كان وسطاً بين الغلاة في نفي قدرة العبد وهم الجبرية ومن وافقهم، وبين الغلاة في إثبات قدرة العبد وهم القدرية ومن وافقهم.
 ٣. العبودية لله عز وجل هي أساس الحرية حيث إن الإسلام نقل الإنسان من العبوديات المزيفة إلى المعبود الحقيقي وهو الله جل جلاله، فأصبح المؤمن بهذا في أعلى مراتب الحرية المتضمنة لأعلى درجات المسؤولية.
 ٤. الحريات في العالم مهما كان مصدرها إلا أنها مقيدة، حيث قيدت الحرية في الإسلام بنصوص الوحي، وقيدت الحريات الوضعية بالحكومة والقانون.
 ٥. أسس الحرية العلمية في الإسلام:
- أن الله عز وجل كرم الإنسان، وفضله على سائر المخلوقات وإذا كان الله قد كرم الإنسان فليس من المعقول أن يفرض عليه المذلة والاسترقاق.
 - جاء الإسلام يدعو الناس إلى النظر في الكون، وإلى التفكير كما أن الإسلام على يقين من أن البحث العلمي السليم والتأمل السديد يوصلان إلى نفس النتائج التي يقررها.
 - الإسلام لم يلزم جميع أفرادَه بالاتجاه إلى علم معين، وترك هذا الأمر مطلقاً حسب رغبة كل فرد وميوله حتى يكون للمسلمين باع في كل علم من العلوم المفيدة.

• يرفض الإسلام كل صور اضطهاد الحرية العلمية.

٦- ضوابط الحرية العلمية في الإسلام:

- خلوها من أي ضرر يمس مقاصد الشريعة الإسلامية، وكلياتها وضروراتها.
 - الالتزام بمبدأ المسؤولية أمام الله تعالى.
 - مراعاة الحقوق والواجبات.
- كما أود أن أوصي بما يلي:

- ١- الاهتمام بالدراسات التي تبرز التوافق بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي وتصب في مصلحة الإنسانية والخير للمجتمعات حتى وإن تعددت المسميات واختلفت بعض الوسائل والتكيفات لتطبيق تلك الأفكار والمناهج والرؤى.
- ٢- إن أسس وضوابط الحرية العلمية في الإسلام مستقاة من نصوص الوحي من الله تعالى الذي خلق العباد وهو الأعلّم بما يصلحهم في دنياهم وأخراهم، لذا يجب الرجوع إليها والاستفادة منها لصياغة منهاج وحدة العلوم والمعارف.
- ٣- تقييد الحرية العلمية في الإسلام هي محض الصواب ومنتهى الحكمة التي تحقق الخير للفرد والمجتمع وتضمن لكل حقه، وعليه لا بد من الاستعانة بتعاليم الإسلام لتنظيم شتى جوانب الحياة.

قائمة المصادر والمراجع:

١. الاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان . وائل علام . دار النيل . المنصورة [د.ت]
٢. إرشاد الفحول لتحقيق الحق من علم الأصول. للشوكاني. تحقيق محمد سعيد البدري دار الفكر . بيروت . ط ١، ١٤١٢هـ
٣. تاريخ الأمم والملوك . لابن جرير الطبري . دار الكتب العلمية . بيروت . ط ١، ١٤٠٧هـ.
٤. تفسير القرطبي. محمد بن احمد الانصاري القرطبي . تحقيق: احمد عبد العليم البردوني دار الشعب. القاهرة، ط ٢، ١٣٧٢هـ.
٥. تهذيب شرح العقيدة الطحاوية . عبد الآخر الغنيمي. دار الصحابة . بيروت . ط ٢، ١٩٩٦م.
٦. الثقافة الإسلامية وتحديات العصر . شوكت عليان الرياض . ط ١، ١٤٠١هـ .
٧. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر . دار الكتب العلمية . بيروت، ١٣٩٨هـ .
٨. حاشية كتاب التوحيد . عبد الرحمن بن قاسم. ط ١
٩. الحريات العامة في الفكر والنظام السياسي في الإسلام . عبد الحكيم العيلي. دار الفكر العربي، ١٩٨٣م.
١٠. الحرية المسؤولة في الفكر الفلسفي الإسلامي . سامي نصر لطف . مكتبة الحرية الحديثة . جامعة عين شمس.
١١. الحرية في الإسلام . عماد الدين الرشيد . دار الفكر. دمشق . ط ١، ٢٠٠٧م .
١٢. حق الحرية في العالم . وهبة الزحيلي، دار الفكر . دمشق . ط ٤، ١٤٢٨هـ .
١٣. حقوق الإنسان في اليهودية والمسيحية والإسلام مقارنة بالقانون الدولي. خالد الشنيير، من إصدارات كرسي الأمير سلطان بن عبد العزيز للدراسات الإسلامية المعاصرة، ط ١، ١٤٣٠هـ.

١٤. حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي . يسري أرشد . كتاب الأمة العدد ١١٤، رجب ١٤٢٧هـ.
١٥. الحقوق والحريات السياسية في الشريعة الإسلامية . رحيل محمد غرايبة . دار المنار . ط ١، ٢٠٠٠م .
١٦. حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها . عبد الرحمن السلمي . مركز التأصيل للدراسات والبحوث . الرياض . ط ١، ١٤٣١هـ.
١٧. الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا . يوسف القرضاوي . مكتبة وهبة . القاهرة . ط ٥، ١٩٩٣م.
١٨. روضة الناظر. موفق الدين ابن قدامة . تحقيق: عبد الكريم النملة. مكتبة الرشد. الرياض . ط ١، ١٤١٣هـ.
١٩. العقيدة الإسلامية وأسسها . عبد الرحمن الميداني. دار القلم . ط ٢، ١٩٧٩م.
٢٠. عن الحرية . جون ستوارت ميل، ترجمه إلى العربية : هيثم كامل الزبيدي.
٢١. الفرق بين الفرق . للبغدادى . تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد . ط ١
٢٢. الفصل في الملل والأهواء والنحل . ابن حزم الظاهري . مكتبة الخانجي . القاهرة.
٢٣. القاموس المحيط . الفيروزآبادي . دار إحياء التراث العربي . بيروت . ط ١، ١٩٩١م.
٢٤. القانون الدولي لحقوق الإنسان . محمد علوان ومحمد خليل موسى. دار الثقافة، عمان . ط ١، ٢٠٠٦م.
٢٥. القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة . عبد الرحمن المحمود . دار النشر الدولي . ط ١، ١٤١٤هـ
٢٦. قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية دراسة نقدية في ضوء الإسلام . فؤاد العبد الكريم . مركز باحثات لدراسات المرأة . الرياض. ط ١، ٢٠٠٩م.
٢٧. القيم بين الإسلام والغرب دراسة تأصيلية مقارنة . مانع المانع . دار الفضيلة . الرياض، ط ١، ٢٠٠٥م .

٢٨. لسان العرب . ابن منظور ، دار صادر . بيروت ، ط ١ .
٢٩. اللمع في أصول الفقه . لأبي إسحاق الشيرازي دار الكتب العلمية . بيروت . ط ١ ، سنة ١٤٠٥هـ .
٣٠. مجلة الهداية الإسلامية . الجزء ١٩ ، المجلد ٦ ، ١٣٥٣هـ .
٣١. مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية . جمع: عبد الرحمن بن قاسم ، مكتبة ابن تيمية . القاهرة .
٣٢. مختار الصحاح . محمد بن أبي بكر الرازي تحقيق : محمود خاطر ، مكتبة لبنان بيروت ، ١٤١٥هـ .
٣٣. المصباح المنير . أحمد الفيومي . مكتبة لبنان . بيروت ، ١٩٨٧م .
٣٤. المعجم الفلسفي . الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية . القاهرة ، ١٤٠٣هـ .
٣٥. مفهوم الحرية دراسة تأصيلية . علي فقيهي . رسالة ماجستير بقسم الثقافة الإسلامية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ١٤٣٢هـ .
٣٦. مقاصد الشريعة الإسلامية : محمد الطاهر بن عاشور ، تحقيق : محمد الميساوي ، طبعة دار النفائس ، الأردن . ط ٢ ، ٢٠٠١م .
٣٧. مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها . علال الفاسي . دار الغرب الإسلامي . ط ٥ ، ١٩٩٣م .
٣٨. مقاصد الشريعة الإسلامية. محمد الطاهر بن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع ، ١٩٧٨م .
٣٩. الملل والنحل . للشهرستاني (١/٣٤) .
٤٠. المنجد في اللغة . علي بن الحسن الهنائي الأزدي . دار المشرق . بيروت . ط ٣٦ ، ١٩٩٧م .
٤١. المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل . أحمد بن يحيى بن المرتضى . صححه: توما أرندل . دار صادر . بيروت ، مصورة من طبعة ١٣١٦هـ .
٤٢. النظام السياسي في الإسلام . نعمان عبد الرزاق السامرائي . الرياض . ط ١ ، ١٩٩٩م .

• مواقع إلكترونية على الشبكة العنكبوتية:

١. مقالة بعنوان " أزمة الحرية الأكاديمية في العالم العربي " للكاتب: محمد مسعد
ياقوت على موقع صيد الفوائد - الرابط:

<http://www.saaaid.net/arabic/169.htm>

٢. مقالة .مفهوم العلم وحرية البحث العلمي في الإسلام . لعمار الطالبي على
الرابط:

<http://www.mohyssin.com/forum/showthread.php?t=3594>

٣. موقع الفقه الإسلامي على الرابط:

٤. <http://www.islamfeqh.com/News/NewsItem.aspx?NewsItem1D=3206>

٥. موقع مركز باحثات لدراسات المرأة. مقالة "فكرة الحرية عند الغرب" للكاتب
سعد الداعج على الرابط:

<http://www.bahethat.com/ActivitieDatials.aspx?ArticleId=125>